فى مصر القديمة

تأصل الفكاهة فى مصر

من المعروف أن ما عثر عليه الباحثون من أدبنا الفرعونى القديم لا يعدو رسومًا وأجزاء مبتورة منه، وحتى ما وجد كاملاً من قصص وغير قصص إنما وجد فى قبورهم، وكانوا يذهبون به فى الغالب نحو تمجيد الآلهة.

وليس من شك فى أن هذا يحول بيننا وبين الاطلاع الدقيق على فكاهات القوم، ومع ذلك فأغانيهم ورسومهم وصورهم تدل على أنهم عاشوا فى عصورهم معيشة بهيجة. وإذا كنا قد فقدنا نكتهم ونوادرهم فإن الرسوم التى خلفوها تفيض بروح الفكاهة. وفى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» الذى نشرته مكتبة النهضة المصرية مترجمًا عن الألمانية عشرات الرسوم والصور

المتلاحقة التى تنبىء عن هذا الطابع المتغلغل فى نفسية المصريين.

فمن ذلك صورة هزلية لسيدة تتزين، وقد أمسكت المرآة بيدها اليسرى، وفى نفس اليد «الحق» الخاص بصبغ الشفاه الأحمر، وفى اليد الأخرى ريشة تطلى بها تسفتيها، وكل ذلك فى وضع مضحك. وفى صفحة أخرى صورة فكهة لشخص أصلع، أرسل ذقنه ومد كفيه مدافعًا عن نفسه، كأنه يمنع من يريد أن يحلق ذقنه أو يصلحها.

ونرى صورة مضحكة لذئب يرعى ماعزًا والمصور يشير بذلك إلى ما يطابق المثل المعروف بين عوامنا إذ يقولون: «حاميها حراميها» حين يشترك خفير البيت فى سرقته مثلاً. ومن هذا اللون صورة لمعركة بين القطط والإوز. ومن رسومهم الفكهة رسم نرى فيه جيشًا من الجرذان يحاصر قلعة للقطط وتقدمت فرقة فدائية، فمدت على القلعة سلمًا واعتلاه فدائى كبير!. وهناك صورة تمثل مباراة فى لعبة الشطرنج بين أسد وغزال، والغزال يأمر الأسد بأن «يكش الملك» والأسد مكشر عن أنيابه والشرر يتطاير من عينيه.

ومن الصور التى لا نكاد نراها حتى نبتسم صورة أمير وأميرة بونت. وهما وافدان على فرعون لتقديم فروض الطاعة، وفيها نرى الأميرة قد تضخم نصفها الأسفل وتأخر فى وضعه عن النصف الأعلى، فأصبح شكلها مثيرًا للسخرية والضحك.

وما تزال خاصة الضحك على الغرباء منتشرة بين المصريين إلى اليوم، فهم يضحكون ويتندرون على لهجة الرومى والتركى

وغيرهما. ولابد أنهم ضحكوا كثيرًا فى زمنهم القديم من أقزام الزنوج، وكانوا يعهدون إليهم بخدمتهم، ويتخذونهم للهو واللعب، وقد وجد المنقبون فى بعض المقابر طائفة من الأقزام وبجانبهم أحدب. وأكبر الظن أنهم جميعًا كانوا مستخدمين للتهريج عند صاحب المقبرة، أو أنه كان يتخذهم ندماء للترفيه عنه والتسلية أو بعبارة أخرى أدوات فكاهة وهزل.

التلاعب بالألفاظ

وكل هذه الصور والرسوم تعبير قوى ناطق عن روح المرح والفكاهة التى تأصلت فى نفوس الشعب المصرى من أقدم الأزمان. وليس بين أيدينا ما يفسر مدى استخدام المصريين القدماء للنكتة ولكن يظهر أنهم كانوا يتوسعون فى استخدامها على نحو ما توسع فيها أبناؤهم فى العصور الإسلامية المختلفة وفى عصرنا الحديث. ففى كتاب «مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة» أنه كان للمصريين ولع خاص بالتلاعب بالألفاظ، وبين تراثهم ومن مخلفاتهم نشيد فى مركبة لفرعون أُلِّف على أساس التلاعب بالألفاظ، إذ يحصى مؤلفه أجزاء المركبة ويسميها، وفى كل مرة يذكر فيها اسم الجزء الخاص من أجزائها يعود فيذكره مرة ثانية بمعنى آخر يصف به قوة فرعون. فالكلمة ذات معنيين ويستغلهما صاحب النشيد دائمًا فى صنع نشيده متلاعبًا بهما.

وهذا التلاعب منبع النكتة التى تجرى فى الحديث، إذ تصبح الكلمة معدة بذاتها ليبرز فيها ذهول اللغة الذى يشبه ذهول أصحاب الغفلة، ففيها شحنتان مختلفتان، والمتحدث اللبق يستغل الشحنتين، فيورى بواحدة منهما عن الأخرى، وبذلك يظهر ما فيها من قوة هزلية تضحكنا.

ومعنى ذلك أن الشعب المصرى وضع يده من أقدم الأزمنة على هذه المفاتيح اللغوية وما يطوى فيها من تلاعب، ولا نشك فى أنه استغلها للتفكه والضحك، لأنها بطبيعتها ترشد إلى هذا الاستغلال وأيضا فانه كان معدا من حيث مزاجه المرح لاستنفاد كل وسيلة فى هذا الجانب.

ولعل من الطريف أن نذكر هنا ما رواه بعض من اكتشفوا مقبرة حورمحب، إذ ذكر أنهم وجدوا غرفة منحوتة فى الصخر، وقد دفن فيها كلب حور محب وقرده الأثيران عنده، وكانت دهشتهم كبيرة حين رأوهما، فقد وجدوهما متقابلين وأنفاهما متماسَّان فى وضع مضحك، ومضت آلاف السنين قبل أن تقع عين أحد من الناس على هذه الفكاهة.

السخرية من الغزاة

وبهذه الشاكلة كانت مصر الفرعونية تضحك، فلما دهاها ما دهاها من غزو الفرس واليونان والرومان لها ذهبت تنفس عن

عذابها وآلامها وكآبتها بفكاهات مرة مليئة بسموم اللذع والتهكم والسخرية.

وطبيعى أن يسخروا ويتهكموا بالفرس لأنهم كانوا غزاة ظالمين، أما البطالسة فعلى الرغم من أنهم توددوا إليهم وبذلوا كل ما استطاعوا ليكسبوا عطفهم، وينالوا حبهم، فإننا نراهم، وخاصة أهل الإسكندرية، لا يتركون فرصة تمر بهم دون أن يصيبوهم بسهام تهكماتهم. وقد نبزوا كلا منهم بلقب ميزوه به، فلقبوا بطليموس الأول بلقب الزمار، أما بطليموس الثانى فقد أصابوه بغير سهم من فكاهاتهم، وانتهزوا فرصة زواجه من أخته، وسلطوا عليه أقذع الكلمات.

ونرى ثيوكريتوس الشاعر اليونانى الذى عاش فى الإسكندرية أثناء القرن الثالث قبل الميلاد يشير إلى هذه النزعة فى المصريين، وما يطوى فيها من الفكاهة، بل من السخرية المؤلمة بقوله: «إنهم شعب ماكر، لاذع القول، روحه مرحة».

ونمضى إلى عصر الرومان فنجد الرومان يقسون عليهم فى حكمهم، وسرعان ما يسلطون عليهم سهام سخريتهم، وقد كادوا لايتركون قيصراً زار مصر من قياصرتهم دون أن يقدموا له هذه الفاكهة أو الفكاهة المسمومة، وكانوا أحياناً لا ينتظرون حتى يفد عليهم القيصر الذى يريدون قذفه بهذه الحجارة المدمية، فيصوبونها إليه من بعيد.

وكم من قيصر سلطوا عليه صوائب سهامهم، فمن ذلك أنهم نبزوا القيصر فسبسيان بلقب تاجر السردين، وقالوا إنه لا يساوى ستة مليمات، ولقبوا قيصراً آخر بلقب النسناس المدلل الصغير.

وكانت هذه السخرية الخبيثة تكلفهم أحياناً ثمناً غالياً، فقد كان القياصرة يغتاظون غيظاً شديداً، فيقسون عليهم فى حكمهم. ومع ذلك لم ينتهوا عن هجائهم، بل ظلوا يقاومونهم ويسخرون بهم، وكأن مزاجهم الفكه الساخر كان يضطرهم ويلزمهم دائما بهذا الدفاع الساخر.